١ـ مفهوم السنّة الإلهية وخصائصها ومجالاتها

١/١: مفهوم السنَّة الإلهية:

إن أفضل ما قيل في تعريف السنة الإلهية أنها: طريقة الله تعالى في معاملة خلقه[١]. فهذا هو المعنى الذي يجمع ما قاله المفسرون، فقد قال الفخر الرازي: أما السنة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[٢]. وقال الطبرسي: السنة هي العادة الجارية[٣]. ويقول ابن عاشور: السنة هي العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها[٤]. ويقول الإمام محمد عبده: السنن جمع سنة، وهى الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع[٥].

وإذا كان معنى السنة هو الطريقة المتبعة، فإن مضمونها يتحدد بحسب ما تضاف إليه، فإذا قلنا سنة رسول الله ـ فإننا نعنى طريقته التي اتبعها وداوم عليها. وإذا قلنا سنة الله تعالى فإن المقصود طريقته تعالى في معاملة خلقه بصفة عامة. وطريقة الله تعالى في معاملة خلقه، تختلف باختلاف الخلق، فهناك خلقٌ لله تعالى قسرهم على سلوك معين، لا يملكون إلا سلوكه، وليس أمامهم خيار فيه، وطريقة الله في معاملة هذا النوع من الخلق (سنته فيهم) أنه أخضعه لقوانين ثابتة عامة لا تتخلف، فدوران الأرض، وجريان الشمس، وتعاقب

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، بدون رقم أو تاريخ ص ١٣.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، مج ٣ ، ص ٥٤.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج١٥، ص٨٤.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ج١٥، ص١٧٨.

(٥) الإمام محمد عبده، تفسير المنار، رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ج٤، ص١١٥.

الليل والنهار، وعمل أجهزة الأجسام الحية تتم طبقاً لقوانين لا تملك هذه المخلوقات حيالها شيئا، وإنما تخضع لها وتسير وفقها، واكتشاف الإنسان لهذه القوانين يمكنه من تسخيرها والاستفادة منها.

وبجانب هذا الخلق الذي قسر على سلوك معين، هناك خلق لله تعالى قد منح حرية الاختيار، ولم يقسر على سلوك محدد، وهو الخلق الذي حمل أمانة التكليف. ومن هذا الخلق النوع الإنساني، وطريقة الله تعالى في معاملة النوع الإنساني (سنته) هي إخضاع سلوكهم لقوانين مطردة ثابتة أيضا، بيد أنها تعمل من خلال نفس السلوك الإنساني. أي أنه كيفما يكون سلوك الإنسان، وموقفه من سنن الله تعالى، واستجابته لهديه، تكون طريقة الله تعالى في معاملته.

إن الله سبحانه وتعالى، قد ربط طيب الحياة بقانون، وربط التقدم أو التخلف بقانون، وربط تغيير المجتمع الإنساني من حالة إلى حالة أخرى بقانون. كما ربط النصر أو الهزيمة بقانون، وربط هلاك المجتمع أو بقاءه بقانون، كذلك فإنه تعالى قد ربط أمن المجتمعات واستقرارها بقانون... إلى آخر ما يقع بالناس والأفراد والأمم والجماعات بل الفوز في الآخرة والخسران فيها ربط بقوانين، أي أن كل ما يجرى إنما يتبع قوانين الله تعالى وسنته في معاملة خلقه، فليس هناك ـ كما قلنا ـ صدفة ولا عشوائية، وإنما أسباب ومسببات، وسنن إلهية تحكم الحياة والأحياء، فمن أخذ بهذه السنن تحققت له نتائجها الإيجابية، ومن أعرض عنها وعاندها، تحققت له نتائجها السلبية.

وهكذا تعمل سنن الله من خلال سلوك الإنسان وحريته واختياره ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس:٩-١٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن مفهوم السنة الإلهية هي: طريقة الله تعالى في معاملة خلقه، كل نوع من الخلق حسب المهمة التي خلق من أجلها.

٢/١: خصائص السنن الإلهية

من استقراء الآيات الكريمة في كتاب الله تعالى، التي تحدثت عن سنة الله في معاملة خلقه، يتضح لنا أن للسنة الإلهية عدداً من الخصائص، يمكن أن نورد أهمها فيما يلي:

١/٢/١: الإطراد وعدم التخلف

ذلك أن النواميس التي تحكم الحياة، جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، وإنما تتبع هذه النواميس[1]. يقول الله تعالى ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾[فاطر:٤٣]. إن التعبير ينفي الوجود (لن تجد) يقطع بالاطراد والاستمرارية وعدم التخلف، فيما يتعلق بالسنن الإلهية وحكمها للحياة، أي أن أول ما تتصف به السنة الإلهية هو الاطراد وعدم التخلف.

٢/٢/١: عدم التعارض بين اطراد السنة وطلاقة المشيئة

إن اطراد السنة الإلهية واستمراريتها وعدم تخلفها لا ينافي أو يتعارض مع حقيقة ثابتة هي طلاقة المشيئة الإلهية، ذلك أن مصدر السنة ومجريها هو الله سبحانه وتعالى، فالله تعالى هو الذي أعطى السنة الإلهية اطرادها واستمراريتها وثباتها وعدم تحولها أو تبدلها.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٠، مجلد١، ص٤٧٨.

وعليه فإن الاستعانة بالسنن والسير على هديها، طلباً للنتائج المرتبطة بها ليس إلا استجابة لأمر الله تعالى، وخضوعاً لإرادته، أي أن استخدام السنن ليس بعداً عن الله تعالى أو اعتماداً على غيره سبحانه، وإنما هو من أمر الله تعالى واستعانه به، فهو مصدر السنة، وهى سنة إلهية. أي أن السنن واطرادها لا يتعارض مع مشيئة الله تعالى، وطلاقة هذه المشيئة، وأن الله تعالى ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[البروج:١٦].

١/٢/٣: عدم التعارض بين إطراد السنن واختيار الإنسان

إن وجود سنن مطردة تحكم الحياة والأحياء، والكون المادي والاجتماع البشرى، لا يتعارض مع إرادة الإنسان أو يناقضها، ولا ينافى اختيار الإنسان وحريته، ذلك أن إمكان الإنسان أن يكتشف السنن ثم يعمل بغير ما هدى إليه، أي أنه يتعامل مع السنن التي تحكم الاجتماع البشرى بإرادته واختياره، ويستطيع أن يسير موافقا لها مستفيداً من عطائها، كما يستطيع أن يتحداها ويعاندها، ويعمل لغير ما ينبغي أن يعمل به، غاية الأمر أن هذا التحدي لا يستمر طويلاً، انه تحدٍّ يقع في الأجل القصير فقط، أما في الأجل الطويل فإن عاقبة التحدي لسنن الله تعالى والخروج عليها، تنتهي بعدم استقامة الحياة، واضطرابها، وفساد حياة الإنسان والجماعة والمجتمع.

١/٢/٤: عمومية السنة الإلهية

من أهم خصائص السنة الإلهية أنها عامة تنطبق على الجميع، فلا تحابى فرداً من الأفراد، ولا جيلاً من الأجيال أو جنساً من الأجناس. إنها كما حكمت

الزمن الماضي، تحكم الحاضر وستحكم المستقبل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي كما تنطبق على غير المسلمين تنطبق على المسلين، وكما تنطبق على العجم تنطبق على العرب وغيرهم من شتى الألوان والأجناس يقول تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾[آل عمران:١٣٧]، ويقول: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[فاطر:٤٣]. ويقول سبحانه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب:٣٨]

إن سنة الله تعالى لا تحابى أحداً، فصحابة رسول الله ﷺ لما لم يحققوا شروط النصر في موقعة أحد، لم تحابهم سنة الله في النصر والهزيمة، مع أنهم أطهر أهل الأرض في هذا الوقت، والعابدون له حقاً ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. إن سنن الله عامة تنطبق على الكافة، ولا تحابى فريقاً.

تلك أهم خصائص السنة الإلهية التي ينبغي استيعابها، حتى لا نخطئ في التعامل معها أو نظن أننا مستثنون من الخضوع لها.

١/٣: ميادين السنة الإلهية

ما من جانب من جوانب عالمنا الذي نعيش فيه ـ المادي منها والمتعلق بالبشر وعلاقات الجماعات ـ إلا ولله فيه سنن حاكمة. يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق:٣]. أي سنناً ونظماً حاكمة، تحكم هذا الشيء. وعبارة ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ في الآية الكريمة لا يخرج عن عمومها شيء.

إن العالم المحكوم بسنن الله تعالى يمكن تقسيمه إلى جانبين اثنين، الجانب المادي، وجانب الاجتماع البشرى والنفس الإنسانية. ومن ثم تكون سنن الله تعالى في ميدانين اثنين، الميدان المتعلق بسلوك الكائنات والموجودات في وجودها المادي، والجانب الإنساني المتمثل في سلوك الإنسان والعلاقات التي تحكم الاجتماع البشرى.

وسنن الله تعالى **في الميدان الأول** تعمل دون أن يكون للإنسان علاقة بها، بل إنه يخضع لها في كيانه المادي، مثل نموه، وعمل أجهزة جسمه المختلفة ومهمة الإنسان بخصوص هذه السنن هي السعي إلى اكتشافها، حتى يتمكن من الاستفادة منها، والحصول على نتائج سيرها الايجابية، وتجنب نتائج سيرها السلبية.

والطريق إلى اكتشاف سنن هذا الميدان هو استخدام الملكات التي أودعها الله تعالى في الإنسان من سمع وبصر وعقل، عن طريق المشاهدة والنظر والتأمل واستخلاص النتائج، ثم الوصول إلى القواعد التي تحكم موجودات هذا العالم، وحوادثه المادية. وبقدر ما يبذل الإنسان من جهد في هذا السبيل يرفقه الله تعالى إلى اكتشاف هذه السنن، ومن ثم يتمكن من تسخير موجودات العالم التي تخضع لها.

أما سنن الله تعالى **في الميدان الثاني**، ميدان الاجتماع البشرى والسلوك الإنساني، فإن الله تعالى قد هدى البشرية إليها، بما قرره في كتابه الكريم، وبما جاء في سنة نبيه ﷺ عندما وضح لنا ترتب أوضاع معينة على سلوكيات معينة، مثل تقريره أن تغيير الأوضاع التي عليها المجتمع، إنما يمر بتغيير الناس

مـا بأنفـسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعـد:١١]، ومثل تقريره أن الرجوع إلى الله تعالى واستغفاره يرتب الرخاء وسعة العيش ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[نوح:١٠-١٢].

وسنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي، والتي ستكون محل عنايتنا قريبا، تقع في هذا النطاق وضمن سنن هذا الميدان، ذلك أن الدراسة الاقتصادية هي دراسة لسلوك الإنسان حيال الظاهرة الاقتصادية.